ابن ميادة (١)

مدائحه ، غزله ، فنه

بقلم حسن علوان
المدرس بالمدرسة الخديوية

٢

في هذا المقال سنتناول بالنظر مدائح ابن ميادة وغزله ، والمدح والغزل عمودان من عمد الشعر ، وغرضان من أسمى أغراضه ، في أخريات العصر الأموي ، وأوليات العصر العباسي ، وقد لابسهما ابن ميادة ، وعاش فيهما .

والمدح فن من الشعر ، يريد الشعراء المعاصرون ، أو الشعراء المجددون ، أن يسقطوه من أغراض الشعر ؛ ويزعمون أن العاطفة لا توحى به ، وأن الوجدان لا يستشعره . ولو أنصفوا الأقدمين لما أصدروا عليهم حكما قبل أن يتفهموا ملابسات حياتهم ، ومقتضيات بيئتهم . وإنهم لو فعلوا لعلموا أن الشعر مرآة تتجلى فيه صورة العصر ، أو أن كلا من الشعر والبيئة يصور الآخر ويترجم عنه ، والعصور قد تختلف ألوانها ، والبيئة قد يتغير قوامها ، ولكن الشعر هو الذي يحفظ صورها ، ويدون حقائقها ، وقد يصبح الغرض النبيل في عصر من العصور ، سمجا سخيفا في عصر آخر ، فليس من الرأي الأصيل ، أن ننال الأقدمين بالزراية ، لأن بطون دواوينهم تتخمها أشعار المدح ، أو نسخر منهم لأنهم تغالوا في وصف الناقة ، وبالغوا في التحدث إليها ، والتطرب بحنينها ، وهي طائرة زمانهم ، وجوابة مومائهم ، ووسيلة الوصول إلى أحبتهم .

ولقد كان الاستبداد والأثرة من طبائع الخلفاء والملوك السابقين ، وكانت

(١) راجع المقال الأول في العدد الثاني من السنة الثانية من صحيفة دار العلوم ص ٥٣ — ٦٠

الضرائب تجبى إليهم ، وتتدفق فى خزائنهم ، فينفقونها فى إشباع رغباتهم ، ويجودون بها على من ترضى عنه مشيئتهم ، فمن استطاع أن يهز أعطافهم ، أو يحرك أريحيتهم ، أو يبيع الحمد والثناء إليهم ، فقد تحاشاه الفقر ، وأقبل عليه المال الوفر . وكان بيت المال فى هذا الزمان ، حلا لذوى القرائح المتقدة ، والمواهب الممتازة ، من الشعراء والأدباء ، والرواة والفقهاء . وما كانوا يصدرون فى مديحهم أو تندرهم عن ملق أو رياء ، لأنهم يعتقدون أن الخليفة صاحب الحق المطلق فى مرافق الدولة ، وأنه يعظم فوق كل تقدير ، وتنقطع دون مقامه غاية كل مدح ، وأن هذا المال أحق به من بلغ المدى فى الفن ، وطار دون سواه فى سماء الإجادة ، وقد يكون من الشعراء منقطع القرين ، فيستولى وحده على العطاء ، كما قطع أبو تمام فى عصره جوائز الشعراء .

على أن المدح فى رأيى أنبل قصدا . وأسمى غاية ، من قول هراء ، يصوغه شعراء هذا الزمان فى « وصف القبلة . أو ألحان الألم . أو ساعة فى ضوء القمر » وكل ألفاظه مبتذلة ، ومعانيه رخوة فسلة ، وغايته لين وضعف ، يأباه هذا العصر الذى يمجد القوة ، ويتغنى بالكسب والعمل . وشعراء المدح كثيرا ما يمجدون الهمم العالية ، والنفوس الأبية ، ويسوقون إلى البطولة والتضحية ، ويبعثون المروءة والأريحية ، ويعرضون للوقائع الحربية فيصورونها ، وللحوادث التاريخية فيسجلونها ، ويخلدون الأبطال والعظماء ، ويشيدون بذكر القواد والزعماء ؛ فأى رسالة للشعر خير من هذا ؟ وأى نفس لاتشبع بهذه المثل العليا ؟ أما أولئك الذين يتحدثون عن الوجيعة ولا وجع ، ويهتفون بذكر الغرام ولا غرام ، ويرددون الكلام عن الوفاء ولا وفاء ؛ فلا أحسبهم شعراء .

وابن ميادة كان أزهد الناس فى مدح الناس ، وما مدح إلا خليفة أو أميرا ، وقد قصر مدائحه على قيس قومه ، وعلى قريش آل الخلافة والملك ، إلا أنه لم يكن شاعرا فصالا ، والشاعر الفصال هو الذى يمدح الناس ليأخذ جوائزهم ، وإنما كانت تدعوه للمدح عقيدة أو محبة ، لأنه كان شديد الاعتزاز بنفسه ، حتى وقر فيها وقارها ، وعرف لها مقدارها ، وقبض نفى العرض ، مصون الوجه ،

وكان إذا وجد الكفاف لا يسأل بالشعر ؛ فقد حكى أنه مدح أبا جعفر المنصور بكلمته التى يقول فيها :

فوجدت حين لقيت أيمن طائر ... ووليت حين وليت بالإصلاح
وعفوت عن كسر الجناح ولم يكن ... لتطير ناهضة بغير جناح
قوم إذا جلب الثناء عليهم ... بيع الثناء هناك بالأرباح

وأتاه راعى إبله بلبن فشرب ، ثم مسح على بطنه ، وقد عزم على الرحلة ؛ فقال : سبحان الله ! أأفد على أمير المؤمنين وهذه الشربة تكفينى ، وصرف وجهه عن قصده ، فلم يفد عليه ، فأنت ترى كبر نفسه ، وبعد همته ؛ على أن عبد الله بن عمر على جلالته ، والحسن البصرى ، وعكرمة ، ومالك بن أنس المدنى ، وجلة من أهل العلم ، غير هؤلاء كانوا يقبلون صلات الملوك (١) . وكان الرماح سامى النفس ، عادل الحكم ، بعيد المدارك ، لا تستجره الرغبة فى نيل العطاء إلى التعريض بخصوم الخليفة ، أو ذم أعدائه كما انزلق سواه من الشعراء فى تيار الحزبية ، واندفعوا فى فتنة الخصومة ، ولهذا بقى عظيم الشأن ، كبير القدر ، لدى الخلفاء الأمويين والعباسيين . وكان لا يبالى سخط الخليفة عليه ، إذا كان فى إعلان رأيه ، أو إبداء ما يظن أنه الحق سخطٌ عليه ، فقد قيل إنه دخل على الوليد ابن يزيد ، وأنشده قصيدة يقول فيها :

فضلنا قريشا غير آل محمد ... وغير بنى مروان أهل الفضائل

فقال الوليد : قدمت آل محمد قبلنا ، فقال : ما كنت يا أمير المؤمنين أظنه يمكن غير ذلك . فلما أفضت الخلافة إلى بنى هاشم ، ودخل على المنصور ، قال له كيف قال لك الوليد ؟ فأخبره بما قال ، فجعل المنصور يتعجب (٢) ، فلم يستطع الوليد أن يحمله على تغيير رأيه ، وهو من المتصلين ببابه ، المختصين بمعروفه ، لأنه كان دَعِبا طربا ، حلو الشمائل ، خفيف الروح ، فألف هذا المزاج بينه وبين الوليد ، فأنس به ، وخف على قلبه ، وقد اتصل به قبل أن تصير الخلافة إليه ، لأن الوليد

(١) العمدة جـ ١ ص ٥١
(٢) ديوان الحماسة جـ ٢ ص ١٢٠ شرح الرافعى

لما شرب الشراب، واتخذ الندماء، وظهر منه مجون، وبدا للناس منه تهاون بالدين، واستخفاف به، أخذ هشام يعيبه ويتنقصه، وكثر عيثه به وبأصحابه، فلما رأى الوليد ذلك خرج وخرج معه ناس من خاصته وموالية، فنزل بالأزرق، فى جزيرة العرب، بين أرض بلقين وفزارة، على ماء يقال له الأغدق، وأقام هناك حتى مات هشام (١) فتعرف إليه ابن ميادة، ولقى منه الوليد أنسا وظرفا وأحبه، فلما صارت إليه الخلافة رحل إليه، فأدناه وأكرمه، وفضله على الشعراء أجمعين (٢)، ومن قوله فى الوليد:

لما أتيتك من نجد وساكنه ... نفحت لى نفحة طارت بها العرب
إنى امرؤ أعتفى الحاجات أطلبها ... كما اعتفى سنق (٣) يلقى له العشب
ولا ألح على الخلان أسألهم ... كما يلح بعظم الغارب القتبُ
ولا أخادع ندمانى لأخدعه ... عن ماله حين يسترخى به اللبب
وأنت وابناك لم يوجد لكم مثل ... ثلاثة كلهم بالتاج معتصب
الطيبون إذا طابت نفوسهمُ ... شوس الحواجب والأبصار إن غضبوا

وهذا الصنف من المدح يصور لك نفس ابن ميادة الكريمة، ويتراءى منه إباؤه وشممه، لم يعرض كرامته فى سوق الضراعة والاستجداء، ولكنه يفخر بأنه يتعفف عن سؤال الخلان، ويأبى أن يطرح نفسه فى مطارح الهوان، ولم يزد فى مديحه إياه على أنّ جزيل عطائه رفع من قدر العرب، وعقب على ذلك، بأنه يطلب الحاجات زاهدا فيها، فلا يحرص عليها ولا يشتد فى طلبها، ويزهد فيها زهد من تضلع من الطعام وبه منه كظة: فما أشبهه بأولئك الذين قال الله فيهم: «يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، تعرفهم بسيماهم، لا يسئلون الناس إلحافا»، ثم يريه أنه لا يخدع صديقه بزخرف القول، وزيف المدح إذا صار فى خفض العيش، وتفيأ فى ظلال النعيم، ليستدر ماله، وينال عطاءه،

(١) تاريخ الطبرى جـ ٨ ص ٢٨٨ بتصرف
(٢) أغانى جـ ٢ ص ٣٠٢
(٣) السنق الذى قد شبع حتى بشم.

وبعد هذا السياق الذى لا يدع مجالا للشك فى عزة نفسه، وشرف غايته يذكر أنه وابنيه حقيقون بالخلافة جديرون بالتاج والملك، وأنهم وأسعو الرضا إذا طابت نفوسهم، شديدو السخط إن غضبوا، فهو لم يجد على الخليفة وابنيه من الثناء بقدر ما نعت به نفسه من الخلال الحميدة والمناقب الشريفة، ولم يغنه ذلك. ولكنه بعد الأبيات السابقة انبرى على طريقة أبى الطيب يزهو بنفسه، ويسمو بها على سائر الشعراء. ويجرى أمامهم فى حلبتهم، فلا يشق غباره، ولا يدرك مداه فيقول:

قسنى إلى شعراء الناس كلهم ... وادعُ الرواة إذا ماغث ماجتلبوا
إنى وإن قال أقوام مديحهمُ ... فأحسنوه وما حابوا وما كذبوا
أجرى أمامهم جرى امرىء فلج ... عنانُه حين يجرى ليس يضطرب

ألا ترى أن الرماح رسم إلى المتنبى هذا الطريق، ودله على السبيل، فى هذا النهج الجميل، الذى يسوق الزهو بالنفس، والعجب بها، فى معرض يونق السمع، ويرتاح إليه الطبع، وتسر به النفس، ويقبله الفؤاد، فيقول وهو يمدح سيف الدولة:

وما الدهرُ إلا من رُواةِ قصائدى ... إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
فسارَ به من لا يسيرُ مشمراً ... وغنى به من لا يغنى مغرِّدَا
أجزنى إذا أُنشدتَ شعراً فإنما ... بشعرى أتاك المادحون مردَّدَا
ودع كل صوتٍ غيرَ صوتى فإنما ... أنا الطائر المحكىُّ والآخر الصدى

وشتان بين شاعر البادية، الذى يرسل قوله عن فطرة خالصة، وسليقة صافية، وخواطر لم ينسج خيوطها إلا من طبع مجيب، وإلهام موات؛ وبين شاعر الحكمة والفلسفة الذى نبت فى أحضان حضارة إسلامية منخولة، نضجت وآتت ثمرها، وتغذى عقله بعصارة علوم الفرس والروم واليونان.

ولقد بقى ابن ميادة على الوفاء للوليد بعد أن قتل، برغم اضطراب الأمور، وجنون الفتنة بعد مصرعه، وتسابُق الموتورين والطامعين من العرب إلى التنكيل به؛ ووصمه بكل بلقاء مشهورة، فقد حدثوا أن عبد السلام بن شماخ اللخمى

طار فاحتز رأسه ، ليقبض من يزيد بن الوليد مائة الألف ثمنها ، وأقبل أبو الأسد مولى خالد بن عبد الله القسرى ، فسلخ من جلد الوليد ليثأر لمولاه خالد ، وجاء عمرو بن مروان وقطع كفه اليسرى وبعث بها إلى يزيد بن الوليد زلفى إليه ، وعرض رأسه على أخيه سليمان بن يزيد فرده وشتمه ، وقال أشهد أنه كان شروبا للخمر ، ماجناً ، فاسقا (١) ، مع كل هذا حفظ ابن ميادة عهده ، وبكاه ورثاه ، وعرض بنى مروان لبشاعة التمثيل ، وفظاعة قتله ، فقال :

ألا يالهفتى على الوليد غداة أصابه القدر المتاح
ألا أبكى الوليد فتى قريش وأسمحها إذا عد السماح
وأجبرها لذى عظم مهيض إذا ضنت بدرتها اللقاح
لقد فعلت بنو مروان فعلا وأمراً مايسوغ به القراح

أما غزل ابن ميادة فبدوى صميم ، وحجازى رقيق ، وخياله صحراوى بحت ، تهيجه النار تلوح له من بعد ، فى جنح الليل البهيم ، ويخيل إليه أنها أوقدت حيث تحل الحبيبة ، ويثير مابين جوانحه الأمكنة التى قد تمر بها ، أو تحل فيها ، أو كانا يلتقيان عندها ، فيتغنى بها ويتطرب بذكرها . وتارة يتمثل إليه أن ضفيرتيها المرسلتين على متنيها سعف النخل ، وأن فتيت المسك تناثر حولها ، وأنها آنق منظرا ، وأعطر ريحا من روضة يخضلها الندى ، ويتوجها الأقحوان والعرار ، وأن درعها وخمارها قد ضما على أسطع من ريح القرنفل ، وأطيب من شذى المسك ، وأنها أندى صوتا ، وأحسن التفاتة من ظبية ترسل بغماتها مع الريح ، وتتلفت نفوراً مروعة من حبائل الصائد ، وشرك القانص ، ثم يزجى القول عن صواحباتها فى ثناء وإعجاب ، وينعتهن بالنعومة والطهر والصون والتمنع ، والملاحة والحسن كأن فى وجوههن مقل الظباء ، وفى أعطافهن ريح الخزامى (٢)

فقد حدثوا أنه خرج يبغى إبلا له ، حتى أتى جُباراً ، فوجد عجوزاً قد أسنت ، وطلبت أن تقريه ، فلما استقر به المكان عندها استنشى ريح الطيب الذى صار

(١) الطبرى ٩ ج ص ٣ بتصرف
(٢) ج ٢ أغانى ص ٣١٦

ينفح عليه من البيت ، ثم دخلت عليه بنت جميلة لهذه العجوز ، فنالت من فؤاده ، وانصرف يتشبب بها فى قوله :

نظرنا فهاجتنا على الشوق والهوى ... لزينب نار أوقدت بجبار
كأن سناها لاح لى من خصاصة ... على غير قصد والمطى سوارى
وما روضة خضراء يضربها الندى ... بها قنة من حنوة وعرار
بأطيب من ريح القرنفل ساطعا ... بما التف من درع لها وخمار
وما ظبية ساقت لها الريح نغمة ... على غفلة فاستسمعت لخوار
بأحسن منها يوم قامت فأتلعت ... على شرك من روعة ونفار
فليتك ياحسناء يابنة مالك ... يبيع لنا منك المودة شاري

هذا نمط ابن ميادة فى شعره حين يتشبب ، وهو نمط صحراوى ، لا يتميز من الفطرة الأولى للشعر العربى ، فى عهديه الجاهلى والإسلامى ، فهو دائما يستلهم البادية : جبالها ، ونباتها ، ونوارها ، وتلاعها ، وظباءها ، ويستنبط معانيه من البيئة التى تحيط به ، والبقاع التى يحل فيها ، ثم يخرجه كما تيسر له ، لا يسهر عليه جفنا ، ولا يكد له طبعا ، فيختشبه اختشابا ، لا يتنوق فيه ولا ينقحه ، وقد قيل له مرة : (لو أصلحت شعرك لذكرت به ، لأن فيه كثيراً من السقط ، فقال : إنما الشعر كنبل فى جفيرك ، ترمى به الغرض ، فطالع وواقع ، وعاصد وقاصد[1]) فهو شاعر الفطرة والسليقة ، لا شاعر التعمل والصناعة ، وما أشبهه بجرير ، فلم يكن شاعراً حولياً أى ينقح الشعر ويهذبه (وكان الفرزدق ينقح الشعر ، وكان جرير يخشب ، وكان خشب جرير خيراً من تنقيح الفرزدق)[2] ومع هذا كانت غطفان تباهى به وتعده أشعر شاعر فيها فى الجاهلية والاسلام . لهذا تقرأ الكثير من شعر الرماح فترى خواطره مرسلة كما تجىء ، لا تجمع بينها أواصر المنطق ، ولا نياط التفكير والتنقيح ، إلا أنه سديد المسلك لا يتعسف ولا يسخف ، ولا يغرق

(١) ج ١ تاريخ الأدب لجرجى زيدان ص ٢٩٩ والعاصب الملتوى الذى لا يصيب الهدف

(٢) أساس البلاغة مادة : خشب

فى الحوشية ، ولا يسترسل فى جفوة الأعراب ، بل يرسله مأنوساً سهلا ، سائغ المورد جزلا ، ويكسوه شملة صحراوية ، ويلبسه حلة بدوية . وابن ميادة فى حرية شاعريته ، وبداوة ديباجته ، عجيب لطبعه ، خاضع لسليقته ، لأنه أولع بالصحراء لم يألف سواها سكنا ، ولم يتخذ غيرها وطنا ، وكان له بالصحراء حنين عجيب ، وشوق غريب ، فقد كان الوليد بموضع يقال له « أُيابر » (١) بالضم والياء الثانية مكسورة ، فى جهة الشمال من أرض حوران ، كان يخرج إليها أيام الربيع للنزهة ، وبعث إلى الرماح فأنزله فى كنفه مكرما منعما ، ولكن لا يهنأ له عيش ، ولا تطيب له حياة إلا بين تلاع الصحراء ورمالها ، فقال والوليد يسمع :

لعمرك : إنى نازل بأيابر وضوء ، ومشتاق وإن كنت مكرما
أبيت كأنى أرمد العين ساهراً إذا بات أصحابى من الليل نوّما

فقال الوليد : يابن ميادة ، كأنك غرضت من قربنا ، فقال : مامثلك يا أمير المؤمنين يغرض من قربه ولكن :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بحرة ليلى حيث ربّتنى أهلى
بلاد بها نيطت على تمائمى وقطعن عنى حين أدركنى عقلى
وهل اسمعنّ الدهر أصوات هجمة تطالع من هجل خصيب إلى هجل
وهل أسمعن الدهر صوت حمامة تغنى حمامات على فنن جثل
وهل أشربن الدهر مزن سحابة على ثمد الأفعاة حاضره أهلى

فقال الوليد : اشتاق الشيخ إلى وطنه . ومنحه مائة ناقة دهماء جعداء عشراء وفحلها ، وجارية بكرا ، وفرسا عتيقا ، وجعل له مثلها كل عام ، وسمح له أن ينصرف إلى وطنه (٢)

على أن ابن ميادة قد يتجرد أحيانا من جزالة البداوة ، فيرق شعره ويتحضر ويلين ويتكسر ، ولكنه لا ينسى ماركز فى طبعه ، وغرس فى نفسه ، من أن

(١) وردت فى الأغانى ج ٢ طبعة دار الكتب (أبابن) والصواب ما ذكرناه عن معجم البلدان

(٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٠٥ والاغانى ج ٢ ص ٣١٠ طبعة دار الكتب بتصرف

يستمد من الصحراء وحيه ، ويستلهمها خياله ، فقد كان مما أعطاه الوليد جارية طبرية أعجمية لا تفصح ، ولكنها حسناء جميلة ، فعشقها ابن ميادة ، وقال فيها :

جزاك الله خيرا من أمير ... فقد أعطيت مبرادا سخونا
بأهلي ، ما ألذك عند نفسي ... لو انك بالكلام تعرّينا
كأنك ظبية مضغت أراكا ... بوادي الجزع حين تبغّمينا

فلم يشأ في رقته ولينه . وإعجابه بصوت جاريته التي لا تفصح : إلا أن يشبهها بظبية سانحة بوادي الجزع ، تمضغ الأراك وتتبغم بصوتها اللين الحنون .

ولابن ميادة طابعه الخاص ، حين يسكن الحب بين أضالعه ، ويتقد بصدره ويعلق المرأة ، وتملك الصبابة عنانه ، فانه يشعل في نفسك لوعة الوجد ، ويجرعك مرارة الفراق ، ويسكب في فؤادك كأساً من حسرة المدله ، ويلقي على مسمعيك نبرات تسمعها خافتة خفوت اليائس المقهور ، في مقاطع تعشقها الأسماع ، وتألفها الطباع ، وهو في ذلك رقيق لا ترى لرقته نهاية ، وعذب ليس لعذوبته غاية . لقد أحب ابن ميادة امرأة من عشيرة ، تكنى أم جحدر ، ونسب بها ، وباعد أبوها بينه وبينها ، كما جرت بذلك عادة العرب من حرمان الرجل حبيبته ، إذا شبب بها ، أو تحدث الناس في شأنهما ، وزوجها رجلا من الشام ، وارتحل بها فلقي عليها شدة ، وخرج وراءها ، يجد في أثرها حتى أدركه أهله ، فارجعوه صامتا لا يتكلم من الوجد بها إلا بقوله :

ألا لا تعد لي لوعة مثل لوعتي ... عليك بأدمى والهوى يرجع الذكرا
عشية ألوي بالرداء على الحشا ... كأن ردائي مشعل دونه جمرا
لعمري لئن أمسيت يا أم جحدر ... نأيت لقد أبليتُ في طلب عذراً
خليلي من أبناء عذرة بلغا ... رسائل منا لا تزيد كما وقرا
ألما على تيماء نسأل يهودها ... فان لدى تيماء من ركبها خبرا
ويا ليت شعري هل يحلن أهلها ... وأهلك روضات ببطن اللوى خضرا
فأعجب دار دارها غير أنني ... إذا ما أتيت الدار ترجعني صفرا
ألا ليت شعري هل إلى أم جحدر ... سبيل ؟ فأما الصبر عنها فلا صبرا

وانى لأستنشى الحديث من اجلها لأسمع عنها وهى نازحة ذكرا
وإنى لأستحيي من الله أن أرى إذا غدر الخلان أنوى لها غدرا(١)

فهو فى حبه وغزله من طراز أولئك الشعراء العذريين ، الذين أصبتهم النساء ، ودلههم الغرام ، وعاشوا بعقل مسبوه ، وفؤاد موزع ، أشباه جميل وعروة وقيس ، أولئك الذين تقرأ شعرهم ، فتردد فيه نفوساً محرومة ، وقلوباً موجعة ، كأنك تلمس خفقاتها باصبعك ، أو تتردد أناتها على مسمعك ، فترثى لحالهم ، وتكتوى بلوعتهم ، وتحس كأنك هم ، فهات بالك ألق عليه قول ابن ميادة :

بنفسى وأهلى من إذا عرضوا له ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب
ولم يعتذر عذر البرىء ولم يزل له سكتة حتى يقال مريب

إنها نفس مخبول ، قنص بحبائل الصبابة ، وسحر بفعل الهوى ، فلم يستطع أن يدفع الناس إن عرضوا له بأذى ، لأنه لا يحير جوابا ، ولا يجد دفاعا ، وإن كان يعلم علم اليقين أنه بنجوة من التهمة ، نقى من الريبة ، ولكنه لا يستطيع أن يتصل بما قرف به ، أو يتنضح مما اجترم عليه ، فيرمى بذنب لم يجنه ، ويحمل إثما لم يجترحه . ثم انظر إليه وقد احتشدت إلى خياله سوالف الذكريات ، وتمثلت إليه صور الأماكن والبقاع ، وما جرى بها من مواقف الوداع ، فجعلته كالمدله الملتاع ، فظن أن لقاءها شيء ليس مما يمكن الحصول عليه ، أو يتيسر الوصول إليه ، وأنه لا يشفيه إلا سهام الحب التى ترشقه حينما يستيقظ من نومه فيقول :

يمنونني منك اللقاء وإنني لأعلم لا ألقاك من دون قابل
ولم يبق مما كان بيني وبينها من الحب إلا مخفيات الرسائل
وإنى إذا استنبهت من حلو رقدة رُميت بحبيها كرمى المناضل

ثم ها هوذا يحدثك فى قصيدته هذه أن الحب جنى عليه فصرفه عن سائر النساء ، وقد كان يرمى الزوائل ، أى طيًا بإصباء النساء ، خلباً لهن ، فلما وقع صريع الغرام ، وأصبح نضو السقام ، عزف عنهن ، وفرغ قلبه من الشغل بهن ، فيقول :

وكنت امرأ أرمى الزوائل مرة فأصبحت قد ودعت رمىَ الزوائل

(١) ج ٢ أغانى ص ٢٧٢

وعطلت قوس اللهو من سرعانها وعادت سهامى بين رث وناصل

فابن ميادة شاعر كسائر الشعراء ، وتشبيبه ككل تشبيب ، حين يسوقه على غرار الشعراء الاسلاميين ، فى عبث النفس ، أو مقدمات المدح ، فيرصعه بذكر الديار والظباء والآراك وما إلى ذلك من مشاهد البادية ، ثم يعرض لاعجاب الغوانى به ، وإدلاله بنفسه ، ومسارقتهن النظر إليه ، ورميه بسهام اللحاظ ، شأنه فى ذلك شأن الشاعر الكذوب ، أو الشاب الدعب الطروب ، فمن ذلك قوله :

وكواعب قد قلن يوم تواعد قول المجد وهن كالمزاح
ياليتنا فى غير أمر فادح طلعت علينا العيس بالرماح
بينا كذاك رأيتنى متعصباً بالخز فوق جلالة سرداح
فيهن صفراء المعاصم طفلة بيضاء مثل غريضة التفاح
فنظرن من خلل الحجال بأعين مرضى مخالطها السقام صحاح
وارتشن حين أردن أن يرمينى نبلا بلا ريش ولا بقداح

فهذا شعر حسن ، وسبك محبوك ، وصنعته دقيقة ، كأنه من بضاعة عمر ابن أبى ربيعة وسبيله مألوف لمن تقدموا ابن ميادة أو تأخروا عنه من الشعراء ولكن معانيه لم تنبع من قلبه ، ولم تتفجر عن عواطفه ، ولم يصور بها إحساسه ، أو ينفخ فيها بروحه . ومن الشعر المصنوع لابن ميادة ، وإن كان ما أفضى عليه من العفة والتصون ، وما أودعه فيه من الاجادة وحسن السبك ، أسنى قيمته ، وأعلى مرتبته قوله :

ياأطيب الناس ريقا بعد هجعتها وأملح الناس عينا حين تنتقب
ليست تجود بذيل حين أسألها ولست عند خلاء اللهو أغتصب

لا يمكننا القول فى هذا الشعر وأضرابه إلا أن ابن ميادة صانع حاذق ومثال ماهر ، ونساج محكم جيد القون متمرن ، ولكنه غير مطبوع ولاملهم ، أما إذا أردت أن تسمع الفن فى شعره ، وتمسك قلبه بين مقاطعه ، وتعرف شيئا أحلى من الوصل ، وأفعل من الخمر . فهاك قوله :

كأن فؤادى فى يد قبضت به محاذرة أن يقضب الحبل قاضبه

وأشفق من وشك الفراق وإنني ـ أظن ـ لمحمول عليه فراكبه
لقد سبقتك اليوم عيناك سبقة وأبكاك من عهد الشباب ملاعبه
فوالله لا أدرى أيغلبني الهوى إذا جد جد البين أم أنا غالبه ؟
فان أستطع أغلب وإن يغلب الهوى فمثل الذى لا قيت يغلب صاحبه

وكان ابن ميادة يرق ويعذب اذا استجاب لطبعه واستلهم روحه وعاطفته وإذا قال كما يقول الناس ، كان جزلا رصينا ، ومال إلى التوعر أحيانا ، واحتمى بدقة الصنعة ليستر ما فاته من طبعه وما خالف فيه وجدانه . وقد تأثر بصحبة الوليد ، فقال فى الخمر ، ومن ذلك : (١)

ألا رب خمار طرقت بسدفة من الليل مرتاداً لندمانى الخمرا
فأنهلته خمرا وأحلف أنهـا طلاء حلال كى يحملنى الوزرا

وقد غلبت عليه ورائته لزهير بن أبى سلمى فكان أحيانا يرسل المثل والحكمة كقوله : (٢)

وأرانا كالزرع يحصده الدهـر فمن بين قائم وحصيد
وكأنا للموت ركب مخبو ن سراع لمنهل مورود

وقوله : (٣)

بنو الصالحين الصالحون ومن يكن لآباء سوء يلقهم حيث سيرا
فما العود إلا نابت لأرومة أبى شجر العيدان أن يتغيرا

وأختم كلامى عنه بقول الأصمعى : (ختم الشعر والشعراء بالرماح) (٤)

حسن علوان

(١) ج ٣ ص ١٩٧ البيان والتبيين
(٢) ج ٣ ص ٨٣ نهاية الأرب
(٣) ج ٢ أغانى ص ٣٣٧
(٤) ج ٣ ص ١٩٧ البيان والتبيين